قراءة جديدة في أثر من آثار تاريخ الشيخ العدواني (لغة عامية وأدبا)

أ.د.طاهر توات

أستاذ التعليم العالي- جامعة الجزائر(2)

مُقدّمة :

الشيخ العدواني هو من علماء القرن الحادي عشر الهجري ، السابع عشر للميلاد ومن ثمّ فإنه عاش عصر الانحطاط الذي كان ضاربًا أطنابه في كل الميادين؛ وهذا ممّا سبّب في انتشار الفقر والجهل والمرض، وكما يبدو جليًّا وواضحًا ومن خلال تاريخ الشيخ مَحمد بن مُحمد بن عْمُرْ العَدواني الولي الصالح الذي يظهر أو يُبرز هذا الأثر ثقافته العامة التي كان فيها مثل بقية أقرانه بحيث كانوا يحفظون القرآن الكريم ويدرسون الفقه من العلوم الدينية الأخرى، لكنهم في مقابل ذلك وفي غالب الأحيان لا يدرسون المادة المساعدة المهمّة والمتمثلة في مادة اللغة العربية بما فيها من علوم النحو والصرف وغيرها وبالتالي فإنهم يُصبحون غير عارفين لِهذه العلوم نتيجة الانحطاط والاستعمار، وهذه الطريقة التي كانت من قبل فهي غير مجدية وهذا ما تعرّض إليه شيخ المؤرخين عبد الرحمن بن خلدون في وقته، وفي موضوع طريقة التعليم في الأمصار الإسلامية التي بقت متّبعة في الأغلب حتى في العهد الاستعماري إلاّ ما شذت عنه بعض الزوايا كزاوية الهامل ولكن إذا ما درّست هذه الزوايا تلك العلوم فإنها تدرّسها لأناس أو طلبة كبار قد فاتهم الوقت في الحفظ والتحصيل بل هم قلة

قليلة جدًّا؛ ولذا فإننا لا نستغرب ولا نلوم آباءنا على عدم تعلّمهم تلك العلوم وهي الأساسية وإن كانت هي مساعدة فيما إذا نظرنا إليها ضمن العلوم الإسلامية وعلى كلّ حال وكما يقال:

تَأَنّ ولا تَتَعجَّلْ بلومك صاحبًا لعلّ له عذرًا وأنت تلوم

فهؤلاء الفقهاء معذورون ولا نلومنّهم على أخطائهم التي ارتكبوها في إنشاءاتهم والتي غالبًا ما كانوا يحفظونها عن ظهر قلب مثل ما يحفظون القرآن الكريم والأدعية وغيرهما.

وفي هذا الإطار وفي رأيي ينبغي أن نضع الشيخ العدواني أو ننظر إليه مثل ما وجدنا عليه آباءنا إلى وقت قريب منّا جدًا قبيل الاستقلال أو بعده في الستينات أو حتى بعدها، هم يحفظون القرآن، وعلى معرفة بالأحكام الشرعية بل مَن كان منهم الفقيه الممتاز لكنّه لا يعرف علوم اللغة العربية وهي علوم مساعدة على الفهم الصحيح للنصوص الدينية.

إذن فالشيخ العدواني – ظهر لنا بهذه الصورة من خلال عصره – ونتيجة طريقة التعليم المتّبعة أو المنتهجة في عصره – بل ظهر لنا أكثر من خلال تاريخه أو آثاره تفكيرُه وثقافتُه العامة والخاصة التي يطغى عليها الجانب التاريخي بالدرجة الأولى وهذا من حيث الموضوع، أما من الجانب الشكلي فإننا نستطيع وصفها بالأدبية وهذا من حيث اتباعه وتقليده لأسلوب فن المقامات والذي يُعطي كبير الدور للحكي والسرد لكن وفيما يبدو أنه لم يستطع أن يأتي بالأسجاع؛ لأنها هي بدورها تتطلّب الثقافة اللغوية المتينة والتمرس على محاكاتها، وأن المادة التاريخية هنا غالبا ما تقل أو تضيع في هذه الأشكال أو المحسنات اللفظية وإنما اتباع الأسلوب المرسل في صياغة الوقائع والحقائق هي أحسن وأدق لتسجيلها لكننا في عصر جدب وقحط للثقافة والعلوم والفنون ..

- وهذه هي الطريقة المفضلة في بلدان المغرب من قبل وكما أخبرنا بذلك لسان الدين ابن الخطيب في إحدى مراسلاته إلى البلاط الملكي بفاس، وكما نادى بذلك ابن خلدون وطبقها بالفعل في البلاط الملكي وفي عهد أبي سالم المرّيني .

أما المنهج الذي اعتمدناه فكان على مدونة العَدواني أو تاريخ العدواني بحيث إن انطلاقنا منه كان من النص أو المتن وليس من معطيات خارجية عنه أو ما هو خارج عن النص الأصلي للشيخ العدواني.

إضافة إلى اختيارنا لبعض النصوص من تاريخ الشيخ العدواني كان مباشرًا وبدون واسطة؛ ولذا قلنا بأن قراءتنا هي قراءة جديدة أو حرّة وغرضنا منها قدر المستطاع الابتعاد عن الآراء المسبقة التي قد نتأثر بها لا محالة فيما إذا رجعنا إليها وليس معنى هذا أننا نلغي آراء الآخرين أو ننتقص منها بل بالعكس سنرجع إليها في مرحلة أخرى وبعد هذه القراءة الأولى الحرة.

- والآن نتطرق إلى بعض نصوص الشيخ العدواني بادئين بنص مجموعة حول الأنساب التي كانت غداة الفتح الإسلامي والتي ظهر فيها العدواني لأول وهلة من تعدّده لبعض القبائل العربية النازلة بالمغرب العربي ذا ثقافة عامة أو تاريخية، وبالتالي فإن مؤلّفه كان ذا مرجعية هامّة في المواطن التي انتشرت فيها تلك القبائل العربية[1].

- لكن التعبير الذي جاء في أول السطر من صفحة ثمانين (80) في تاريخه هو تعبير نابع من محيط العدواني حينئذ والذي ضعفت فيه اللغة العربية في هذا العصر الانحطاطي والدليل في تعدّد هذه التراكيب والجمل غير السليمة ومنها: " وأمّا البوادي الذين ساكنين بين أقسمطين والبحر[2] .. ". وكذلك وهو يتحدث عن

أصل القبائل بين جبل الملح، ويقول بـ " أنّهم كلّهم فهم من لخم " وكما هو ملاحظ بأن هذا التركيب غير سليم بزيادة الضمير " هم ".

يضاف إلى ذلك لفظ أقسمطين المتأثر فيه باللهجة المحلية، أمّا نطقنا الآن للمدينة فهو ناتج عن نطق المستعمرين، ولا عيب في ذلك؛ لأن الناس على دين ملوكهم كما يقال.

- لكن إذا كانت لغة الشيخ العدواني غير سليمة في الغالبية من تراكيبها نتيجة هذا العصر المنحطّ الذي أصاب هذه الأمّة في مشرقها ومغربها فإنه في مقابل ذلك يفيدنا الشيخ العدواني إفادة مهمّة من حيث الأماكن التي استوطنتها هذه القبائل وهذا على الأقل في معرفة أصولها أو أصولنا.

- أمّا الشيء الذي لا يُختلف فيه فهو أن الفرنسي شارل فيرّو استغل تلك المعلومات التي أتى بها الشيخ العَدواني لغرض استعماري سياسي كبقية بني جلدته مثل ستيفان غزال وغيره ممّن ينتمون إلى مدرسة الاستشراق الفرنسي وهو استشراقي استعماري لكن إذا استثنينا بعضهم كشارل أندره جوليان صاحب تاريخ إفريقيا الشمالية فينبغي أن نكون على حذر وهذا على الرغم من موضوعية هذا الرجل في كتابة التاريخ.

- هذا وعلى هامش كتاب الشيخ العدواني وجدنا الأستاذ المؤرخ والأديب سعد الله يورد قول ابن أبي دينار بأن هناك بقيت عدّة قرى مسكونة بالكافرين إلى ما بعد المئة الرابعة كما كانت الأسقفية تأتي من الإسكندرية ... إلخ ، والآن تأتي من عمّان ويبدو هنا أن حليمة عادت إلى عادتها القديمة، إذ إن الكنيسة عيّنت أسقفا من الشرق في مكان الأسقف السابق الذي تقاعد، كما عيّنت رهبانًا آخرين في دَير تبحرين بولاية المدية حسبما أفادتنا به الصحافة في الأيام السابقة.

- ويبدو لي بل أرجح بأن اختيار شارل فيرّو واهتمامه بالشيخ العدواني لم يكن عبثًا؛ إذ المعلومات التي أتى بها هذا الشيخ هي معلومات مهمّة ومغرية للغاية بل تدفعنا دفعًا إلى المزيد من الاطلاع على عمله أو آثاره، ودليلنا على ذلك هو ذكره لهذه المجموعة من الأنساب التي انتشرت شرقًا وغربًا بشيء لربما هو قريب من الدّقة، لكن وكما ذكرنا نتيجة لعصر الانحطاط وجدنا اسم قسنطينة كان يتلفّظ به أقسمطين وأقسمطينة وأقسنطينة[3].

بالإضافة إلى هذا وكما يبدو لنا أن هناك خطأً إمّا في معلومة الشيخ العدواني أو النسّاخ وهو أن سكان المغرب من قسنطينة إلى تلمسان هم من نسل عجلان بن طارق وأصلهم من اليربوع بأرض الهند.

ولربّما هذا من الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون؛ لأن الواقع غير ذلك؛ إذا إن بَشْرة هؤلاء السكان لم تتشابه مع بشرة سكان أرض الهنود ! هذا أوّلاً، وثانيًا أن السياق أو التركيب كان فيه قطع، والصواب في رأيي: " وأما السكان من أقسمطينة إلى تلمسان فهم من نسل عجلان بن طارق فلما أسلموا أتوا أربعمائة رجل ".

- ورأيي هنا يتوافق مع نسخة (فـ) التي لم تذكر جملة (أصلهم اليربوع بأرض الهند).
- والفضل كل الفضل يعود هنا للأستاذ سعد الله على تحقيقه الدقيق وتعليقه المفيد لتاريخ الشيخ العدواني؛ إذ لو لا هذه الدقة للمحقق لما توصّلنا إلى النتيجة: أن السكان لا يتشابهون مع الهنود.
- والآن ننتقل إلى قصور عَـدوان[4].

إنّ المعلومات التي وافانا بها الشيخ العدواني عن قصور عدوان، ورحيل طُرود من نواحي باجة إلى هذه القصور، وكذلك طُرْد وأمير إفريقية فهي عبارة عن حقائق

تاريخية تتسم بالقص الروائي أو القص في المقامات بدليل تكرار وتكرار قال الراوي، لكن لغة العدواني غير سليمة في معظمها؛ لأنها تقترب في أحيان كثيرة من اللغة العامية أو الدّارجة؛ وهذا نتيجة الانحطاط الثقافي العام الذي أصاب الأمة في مقوّم من مقوّماتها، وكان من بين نتائجه أنه أثّر في الشيخ العدواني وغيره كبير التأثير حتى إننا لم نعد نفرّق بين المثنى والجمع، وهنا تختلط الأمور على المتلقي أو القارئ وهذا ظاهر وواضح من لغة الشيخ العدواني، ولنأخذ مثلاً لذلك في حديثه عن شخصين بارزين في قوله: " فأخذ عمارة بن سالم، والأسد بن سارية يلوجون في الأوطان حتى لقوا قصور عدوان فلم يجدوا فيها أحدًا[5] " و" قال صفوان الراوي: فلما وصل الرجلان إلى القصور فسألا: هل فيها أحد أم لا، فأجابها شكر: ما فيهم أحد ... ".

- إذن هناك خلط بين الضمائر وهذا ما جعل المحقق يتدخّل من حين إلى آخر لتصويب لفظ أو جملة كما في هامش صفحة 93، السطر الثالث 3 من تاريخه.

- كما يتعرض الشيخ العدواني إلى وفاة طُرْد أو اطراد ووصيته، ونزول طرود وعدوان بسوف، ولعبة الشاة.

ويحضرني أن هناك من لقبه اطراد بشرق الجزائر الذي يركزّ عليه الشيخ العدواني[6].

وفي بعض أخبار سوف[7] نجد الشيخ العدواني كاد أن ينحرف بنا انحرافا كليًا بالنص التاريخي إلى النص الأدبي مضمونًا وشكلاً.

- ففي المضمون هنا ما يدل على المدلول وبصفة غير مباشرة ؛ إذ إن المراد أو المقصود بمسجد الشيخ هو حسن عياد أو مسجد الشيخ زكريا البسكري وهو الأرجح كما ذهب إلى ذلك الأستاذ المحقق ، ولكن الشيخ الذي سأله صفوان فهو ليس بالشيخ زكريا البسكري ولا حسن عياد وإنما هو شخصية مجهولة ، والرواية فيها الكثير من المبالغة والوضع ، وقد يكون من بعض النساخ لتاريخ العدواني كما ذهب إليه المحقق أيضا.

• أما من حيث شكل هذا النص فهو يقترب جدا من أسلوب المقامات ؛ لأنه حاول أن يأتي بالسجع لكنه لم يوفق في ذلك ، ونميل إلى أن العدواني كان قد اطلع على هذا الفن الذي كان كثير الانتشار بالمشرق والمغرب والأندلس بدليل تعدد نسخ الهمذاني والحريري وغيرهما وكذلك لِكثرة الكتّاب الذين كتبوا في هذا الفن قبيل الهمذاني إلى منتصف القرن الماضي ، وهو فن كان أوجده كبار الكتّاب والأدباء لتعليم اللغة للنشء.

• كما يلاحظ أن الشيخ العدواني وهو يتحدث عن حقائق تاريخية لم يتردد كذلك في توظيف وسائل أسلوبية كالحوار وهذا في حديثه عن نقباء سـوف[8]، هذا من جهة، من جهة أخرى فإنه قلّ أن يخلو له أيّ نص في تاريخه من تعابير وألفاظ من اللغة الشعبية أو العامية فمثلا في هذا النص ، وعن طريق الراوي يوظف لفظ (منه) بدل من هو ؟ وهذا ظاهر من قوله : "قلت له : ياشيخ مَنْهُ الوالي عليهم"[9] .

ولعل توظيف الشيخ العدواني لهذه الطريقة الفنية كانت من بين الأسباب المؤدية إلى انتشار تاريخه بدليل نسخه ، لكن السبب الأقوى هي تلك المعلومات التاريخية؛ لأن الناس يميلون من فطرتهم إلى معرفة أنسابهم أو أصولهم وبخاصة أن الكثير يقولون : نحن ننتمي في أصولنا إلى الشجرة النبوية الشريفة أو جئنا من الساقية الحمراء ووادي الذهب أو أن يَغْمُرَاسَنْ بن زيان من أصول نبوية شريفة وهكذا دواليك...! ؟

وما دمنا في استعراض نقباء سوف للشيخ العَـدواني فإننا نتعرض إلى حديثه عن نفطة وسوف فنفطة كما يفهم بأنها كانت على غير مذهب السنة لكن إن أراد الشخصي رفض هذا المذهب فعليه الذهاب والاستقرار في سوف التي تقل فيها موارد العيش والحياة.

ونظرا لقلة الامكانات أو لعدم وجودها في سوف بالإضافة إلى سلوكها أو سيرتها فإنه ينصح بتركها ؛ لأن أرض الله واسعة ، ولكن مع هذا فإن سوف لها خصلتان محمودتان ومنها ماؤها الذي يزيد في ماء الصلب ، ورجالها أقوياء وقلوبهم قاسية فلا يخافون من مكر الماكر ولا من سلطان جائر .

ومن الخصلتين المذمومتين قلة المعاش[10] .

وكل هذه المعلومات كان يوردها الشيخ العدواني عن طريق الأسلوب الإنشائي المتمثل هنا في سين وجيم أي سؤال وجواب.

- مع الملاحظة هنا وكأننا مع رحّالة يتحدث عن ما يعنّ له من عمران المدينة وسلوكات أهلها .

- والباحث لما يستعرض ما جاء في أصل نفزاوة ، وقسنطينة وغيرهما يصاب بدهشة كبيرة من انحراف النص التاريخي أيضا ؛ وذلك لربما لقلة معلومات الشيخ العدواني في موضوع ما ، وميله إلى أسلوب فن المقامات ، وبالتالي ونتيجة لذلك تضيع أو تقلّ المعلومة أو الواقعية الحقيقية التاريخية[11].

هذا ومن الملاحظ بمكان أن الشيخ العدواني يبدو في تاريخه أنه لم يكن له اطلاع على موضوعات ومبادئ أساسية في النحو والصرف ، ولذا نجد عنده كثرة في الأخطاء المتردّدة في تاريخه.

وفي الأخير يبدو لنا أنه بالإمكان دراسة تاريخ الشيخ العدواني على ضوء النقد الأدبي في هذا القص السردي التاريخي وفي ضوء الأدب الشعبي أيضا ، ولأن العدواني يفيدنا حقا بحقائق تاريخية لكنه يمدها لنا في ثوب مبطن أو في ثوب أدبي كفن المقامات الذي اشتهر شرقا وغربا وهو من الفنون العربية التي تطورت أصلا على يد

النهضويين العرب، وذلك بمخالطة الفنون الغربية كالرواية التي أصبحت الآن كثيرة الرواج في العالم بل أخذت أو افتكّت افتكاكا تلك المنزلة التي كانت للشعر ، ولله في خلقه شؤون وتلك الأيام نداولها حتى بين الفنون والعلوم .

نتيجة واقتراح :

إضافة ومن خلال اطلاعنا المباشر على هذا الأثر القيم للشيخ العدواني الولي الصالح وكنتيجة لقراءتنا المباشرة له اتضح أو تبين لنا ما يلي :

- أننا نقوم بتصويب الأخطاء اللغوية فيه ومنها النحوية على الخصوص ؛ وذلك تسهيلا على المتلقي أو القارئ لقراءته ؛ لأن متلقي اليوم ليس هو متلقي فيما قبل الاستقلال وسنوات الستينات أو حتى منتصف السبعينات ، ولأن أبناءنا اليوم أو هذا الجيل هو أقرب إلى تعابير العربية الحديثة ومصطلحاتها .

- ومعنى هذا كله أننا نقوم بشبه ترجمة من اللغة العامية إلى الفصحى وهذا ما شرع فيه العبد الفقير من خلال قراءته المباشرة لهذا الأثر الغني بالمعلومات التاريخية وغيرها، لكن في هذه الترجمة نكون على حذر بل في أتمّه على عدم مس التعابير الأخرى والواضحة في هذا الأثر .

- وغرضنا أو هدفنا من هذا العمل وكما أسلفت هو تسهيل فهم أثر الشيخ العدواني ومن ثم نعتقد أنه يسهل انتشاره ليس في أفقنا المغربي أو المغاربي وإنما أيضا لإخواننا وأشقائنا في المشرق مع الملاحظة أن أثر الشيخ هو مثير في أصله لكنّنا إذا قمنا بهذا العمل سيصبح مثيرًا أكثر ومن ثمّ تتم الفائدة.

بالإضافة إلى ذلك أن العبد الفقير شرع بالفعل كذلك في دراسة مقارنة بين أثره هذا المتمثل في تاريخه وفن المقامة العربية ولا سيما أن هذا الفن عرف انتشارا واسعا في المغرب العربي والأندلس.

كما بقي تأثيره إلى اليوم وفي الباحثين بالخصوص حيث لا زال هذا الفن يثيرهم دوما وكأنه هو هاجسهم ومن ثمّ دفعهم ويدفعهم إلى البحث في بعض أوجه التشابه بين فن المقامة وفن الرواية والقصة والمسرح ...

يضاف إلى ذلك أيضا أن هذا الأثر للشيخ العدواني له علاقة متينة بالأدب الشعبي وبأدب الرحلة الذي اشتهر به المغاربة وهذا لعوامل منها عامل السفر لأداء فريضة الحج ، وتحملهم الكبير لمشاق السفر والصمود كما صمد طارق بن زياد البطل أمام حجافل لذريق سنة 92 هـ ، وانتصر عليه ، أو ربما ورثوا قطرة دم من بطل آخر كبير وهو حنّبعل وبأبطال آخرين مثل عقبة بن نافع وموسى بن نصير أبطال الفتح الإسلامي.

إذن كتاب الشيخ العدواني يدخل من ضمن ما يدخل فيه الأدب الشعبي وهذا ما ذهب إليه المؤرخ والأديب سعد الله وغيره في قوله : "وهو كتاب يدخل فيما يسمى بالأدب الشعبي، فلغة وعادات الناس الذي يتحدث عنها والأساطير التي يرويها والمغامرات كل ذلك يجعل منه قطعة من الأدب الشعبي الذي تقرأه فكأنما أنت تقرأ قطعة من تغريبة بني هلال أو ألف ليلة وليلة[12].

وبصفة عامة فإن الكتاب هو ذو مضمون تاريخي وشعبي وأدبي مأخوذة مادته من بيئة صحراوية بالخصوص.

هذه هي بعض قراءاتي في آثار الشيخ العدواني المتمثل في تاريخه وهي كمدونة لازالت مادة خام صالحة للبحث والمناقشة العلنية التي لربما تثري هذا الأثر بالتحليل الذي يعود لا محالة علينا وعلى الأجيال بالفائدة المرجوة من تراثنا ، التراث الذي يبني ولا يهدم ، التراث الذي يكون محطة رئيسة للانطلاقة نحو الإبداع الذي لا يكون إلا بالتراث حسب المفكرين وعلى مختلف إيديولوجياتهم ومواقفهم ومنهم محمد عمارة ، وحسن حنفي ، ومحمد العابد الجابري ، ومحمد أركون وغيرهم ممّن درس وبحث في التراث العربي والإسلامي أو ممّن لهم هاجس السلفية أو الانتقائية أو العصرانية في قضية التراث أو قضاياه.

هوامش الدراسة :

1- ينظر : العدواني : تاريخه ، تحقيق أبي القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة 2 بيروت ، لبنان ، 2005 ، ص 79.

2- ينظر المرجع نفسه ، ص 80.

3- ينظر المرجع نفسه ، ص 80-83.

4- ينظر المرجع نفسه ، ص 89 وما بعدها.

5- ينظر المرجع نفسه ، ص 89.

6- ينظر المرجع نفسه ، ص 108-110.

7- ينظر المرجع نفسه ، ص 133-134.

8- ينظر المرجع نفسه ، ص 160.

9- ينظر المرجع نفسه ، ص 161.

10- ينظر المرجع نفسه ، ص 254.

11- ينظر المرجع نفسه ، ص 273-280.

12- ينظر المرجع نفسه، ص 13.

ملاحظة 1 : استفادت الدراسة من تقديم سعد الله أبي القاسم في تحقيقه لتاريخ العدواني، وهذا من الصفحة 3 إلى 73.

ملاحظة 2 : استفادت الدراسة أيضا من دراسة محمد الأمين بلغيث تحت عنوان : "الشيخ محمد بن عْمُر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشابية" من الصفحة 3 على 42.

ملاحظة 3 : استفادت الدراسة من أرشيف وزارة الدفاع الفرنسية ولا سيما في لغة الرسائل التي هي تكاد أن تكون كلغة الشيخ العدواني.

مـــراجع الدراســة :

- العدواني : تاريخه، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله (جامعة الجزائر)، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 2005.

- محمد الأمين بلغيث (جامعة الجزائر) : الشيخ محمد بن عمر العَدواني مؤرخ سوف والطريقة الشابية، الطبعة / 2، مزيدة ومنقحة 2007 م، دار كتاب الغرب للنشر والتوزيع، جيجل، الجزائر.

- الأمير عبد القادر : أرشيف وزارة الدفاع بباريس، فرنسا من العلبة رقم 19-92، وكذلك مراكز الأرشيف الوطنية، والمكتبة الشرقية، ومكتبة جامعة السربون، ومعهد العالم العربي بباريس فرنسا، وكذلك المركز الوطني الفرنسي بـ : (Aix en Provence) بفرنسا أيضا.

- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998.